الفصل الخامس

بداية اللقاء

أما وقد وقفت بكم على باب ساحته الرحبة ، وأنا أصبو - بما يجوب داخلى من رهبة - إلى الولوج إليه ، والتوغل فى أغواره ، ومجابهته وجها لوجه ، سندى فى ذلك معايشتى لأفكاره وكتاباته وكتابات غيره عنه ، ومددى من فيض مجالسه وتجاريه عبر شهادات أصدقائه وتلاميذ ومريديه ، وزادى ما أدركته عنه من جوهر المبدع الصدوق، فليفتح شيخنا بابه ، ولندلف إلى مفازاته ودوحاته الرحيبة المديدة.

وأبدأ قصة اللقاء من أولها ففى يوم من أواخر شهر نوفمبر من عام ١٩٧٠ ، كنت أتناول الغداء مع والدتى رحمها الله ، وكان لدى إحساس بأن شيئا ما سوف يحدث ، وفعلا بعد فترة قصيرة ، اتصل بى هاتفيا الناقد المعروف الدكتور صبرى حافظ ، الذى كان يعلم مدى شغفى لمعرفة الأستاذ محمود شاكر ، وبعد أن أعطانى رقم هاتفه الخاص . أخبرنى بأن صديقنا الحسانى حسن عبدالله كان عنده أمس فانتظرت إلى يوم الثلاثاء التالى وفى صباح اليوم الموعود ، استجمعت قوتى بل جسارتى وأدرت قرص الهاتف ، طبقا للأرقام التى عرفنى إياها الدكتور صبرى .. واتخذت من السؤال عن الأستاذ الحسانى وسيلتى للحديث مع الأستاذ محمود شاكر . وما أن أجاب حتى أحسست بصوته يرجنى ، وكأنه يجابهنى شخصيا ، سألته عن الاستاذ الحسانى وهل هو موجود ؟ فرد علىّ وقال . لا : إنه يأتى يوم الجمعة .. فقلت : ولكنه كان عند سيادتك الثلاثاء الماضى وكأنه ارتاب فى شخصى قال : كانت صدفة ومن أنت ؟ قلت زميلة للحسانى بمؤسسة السينما فقال : ولماذا لم نرك ؟ قلت حسانى رفض ذلك مع أنى أريد أن أكتب عنك .. فقال : دعك من الكتابة هل لك أقدام ؟ قلت نعم ، ولكنى لا أعرف العنوان .. فأملاه علىّ بتفصيل دقيق .. وكان ثمن تذكرة المواصلات العامة إليه يومئذ ثلاثين قرشا .. أى غرامة كبيرة .

وفى عصر يوم الجمعة السادس من ديسمبر عام ١٩٧٠ .. أذكر أننى ركبت الاتوبيس رقم «٩٨» من الروضة إلى التحرير ثم آخر رقم «٣٠٠» إلى قبلتى «فى مصر الجديدة شارع الشيخ حسين المرصفى رقم «٣» ولا أستطيع وصف حالة الوجل الذى صاحبنى طول الطريق إليه أو حين مثل أمامى فاتحا لى الباب بنفسه، فإذا بهيئته تطيح بما رسمته له من صور من خلال الروايات التى سمعتها عنه ووصفهم إياه بالشيخ ، فلم يكن معمما ولا ذا لحية طويلة كثيفة ، إذ لقيتها خفيفة، وينطبق عليه بالإجمال ما وصفه به الأستاذ محمود البدوى : « والأستاذ شاكر» طويل فى نحافة ، حاد الصوت والنظرة ، فيه عنف العربى إذا أثير ، ولكن مع صلابته يلقاك بالبشاشة والود ، وما لقيته إلا مبتسما ».

لم ألحظ فى الوهلة الأولى لرؤيته ، إلا بساطته وتواضعه الأصيل بالفعل مع ابتسامته الودودة ، وقدرت أن عمره ، تجاوز الستين بقليل .

ولأن زيارتى له كانت فى الصيف ، فقد وجدت الضيوف الذين سبقونى يجلسون فى شرفة شقته الفسيحة فى الهواء الطلق .. وكانت جلستى فى أول مقعد صادفته .. وكان مكانه الأثير كما عرفت فيما بعد – ولما لم أكن أعرف من الجلساء أحدا .. فقد كنت أخفى خجلى بالنظر إلى الكتب التى لاحظت أنها تملأ جدران الردهة المواجهة لى . مجلدات بأجزاء كثيرة ، وعناوين لم أسمع عنها فى متابعاتى لتاريخ العربية ورجالاتها «الصلة لابن بشكوال » ، «تكملة الصلة لابن الآبار» ، «نفح الطيب للمقرى» ، «المحلى لابن حزم» ، «البداية والنهاية لابن كثير»

«المنتظم فى تاريخ الأمم لابن الجـوزى» ، «الكامل في التـاريخ لابن الأثير» «كتاب النبات لابن حنيفة الدينورى » «طبقات الحفاظ للسيوطى» و .. و . وفجأة .. كأنه ببشاشته . يزيح عنى الخجل بالنظر إلى الكتب ، سألنى عن لقب «الشريف» فى اسمى - فأعدت على مسامعه وأنا أتلعثم، ما كان يقصه والدى علىّ من أخبار عن شجرة عائلتنا العربية ، وهنا استوضحنى عن البلدة التى جئنا منها إلى القاهرة ، فقلت: «بعضها من أخميم والآخر من «جرجا» فتهلل وجهه وهو يقول : قطعا نحن أقرباء فأنا أيضا من جرجا ، ثم أخذ يشرح للضيوف وجلساء الندوة : أنساب العائلات العربية التى تشعبت فى مصر بتمكن واقتدار ، ولكى أحول دفة الحديث عنى وأنا أواصل النظر إلى مكتبته الهائلة قلت: لم أكن أعرف أن كتب التراث العربى بهذه الضخامة والتنوع ، عندئذ بادر إلى تصويب سؤالى - وتلك عادة عرفت بعد ذلك أنها من ألصق عاداته قبل الإجابة على السؤال - وقال لى : ليس هناك شئ باسم التراث العربى ثم شرح لى أن كلمة تراث تطلق على نتاج حضارة بادت واندثرت ، ثم نتناولها بالحديث أو الكتابة ، أما حضارتنا العربية فمازالت مستمرة باقية وليست تراثا ثم تعاظمت نبرة صوته وهو يشرح أدق التفاصيل ، ولم يهدأ إلا بعد أن انتهى من تصويب كلمتى - التى قلتها عفوا من شدة خجلى - وبيان وجه الخطأ فيها ، ورأيه فيمن يقول ذلك .. وربما كان سيطيل أكثر لولا ظهور أولاده الصغار فى المكان الذى نجلس فيه .

وللاستاذ محمود شاكر من الأولاد (فهر) وكان عمره ، يوم كانت

أول زياراتى ، ست سنوات ، و(زلفى) وكان عمرها لا يتجاوز السنة والنصف ، وقد أكد لى صغر سنهما على ملمح من شخصيته ، ألا وهو أن علمه وفكره ، ومكتبته وبحثه ودرسه ، ومعاركه وآلامه ، وزملاءه وتلاميذه ، كل ذلك أخذ شطرا كبيرا من عمره قبل أن يتزوج .. ذلك أن الدكتور مندور قال لى أنه ومحمود شاكر كانا زميلين فى دفعة واحدة . وأولاد شاكر يمكن أن يكونوا أحفاد مندور . مع أن مندور تزوج بعد عودته من بعثته فى فرنسا .

وعندما رددت اسم (فهر) بشفتى بينى وبين نفسى - لأنه الاسم الذى يكنى به ويكتبه على عناوين كتبه ومقالاته (أبو فهر) - أحاول أن أتذكر مكانه بين نسب قريش ، قطع شيخنا علىّ تفكيرى .. وكأنه يقرأ مادار بخلدى : هو قرشى وهو الجد العاشر لمحمد صلى الله عليه وسلم، وهنا أدركت أن شيخنا له فراسة نادرة ، إضافة إلى علم واسع غزير ، فذكرنى بالحديث الشريف «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله» .

أما اسم ابنته «زلفى » فقد أعادنى إلى مقدمة كتبه لاسيما الظاهرة القرآنية «حيث يستهلها دوما» ، الحمد الله وحده لا شريك له حمدا يقربنا إلى رضوانه ، وصلاة الله وسلامه على نبيه المصطفى من أبناء الرسولين الكريمين إبراهيم وإسماعيل ، صلاة تزلفنا إلى جنته »

وقد أكد لى سلوك الأستاذ شاكر فى هذه الجلسة الأولى ما كتبه

عنه أحد تلامذته وأصدقائه الدكتور محمود الطناحي (١) حيث قال وشيخنا فى مجلسه طيب ودود ، يؤنس جلساءه ، ويجعل لكل منهم نصيبا مفروضا من وده وإقباله ، لا يصطنع وقارا كاذبا ، فيطرب للنادرة المهذبة الحلوة ، ويستزيد منها ويرويها » .

وقد حاولت أن أستأثر به لنفسي - دون مريديه - لأنهل منه وأتوغل فى طيات حياته - بحجة إجراء حوار معه - فذهبت محاولتى أدراج الرياح ، فتأكدت أنه لا يستهويه الإدلاء بالأحاديث ، ولا تغريه الصحافة فى شئ ، مما سبب لى شيئا من الحرج شعر به تلميذه الدكتور ناصر الأسد (٢) ، وكان من حضور الجلسة ، حيث انتحى بى جانبا يحاول أن يخرجنى مما أنا فيه فبدأ يحدثنى هو عن الاستاذ محمود شاكر ... وظروف تعرفه عليه وما وصله من شخصه وعلمه فقال : «كنت بصحبة زميلى الدكتور محمد يوسف نجم ، يوم زرته عام ١٩٥٥ بعد انتهائى من إعداد الماچستير وبداية إعداد رسالة «الدكتوراه» فأبدى رغبة فى أن تستمر المودة بيننا ، فتأكدت أن صداقة سريعة قد نشبت بيننا . وقد

---

(١) للتفصيل راجع الرحلة الرابعة مرحلة الأفذاذ من كتابه «مدخل إلي تاريخ نشر التراث العربي» .

(٢) كانت رسالة الدكتور ناصر لـ «الدكتوراه» عن الشعر الجاهلي - وقيل أن بصمات شاكر واضحة عليها ، ووقت إدلائه بهذا الكلام كان سكرتيرا للمنظمة العربية للثقافة والعلوم ، وهو رئيس المجمع الملكي الأردني ومؤسس الجامعة الأردنية ومديرها السابق .

أفدت من مجالس محمود شاكر مالم أفده من مجالس أخرى فى جميع مراحل حياتى ، لا استثنى من ذلك مرحلة دراستى فى الجامعة فليس مبلغ علمه هذا الأسلوب الفريد الذى لا تخطئ فيه شخصية كاتبه مهما يكن الموضوع - فقها كان أم شعرا أو نحوا - فهو يصرخ دالا على صاحبه ، ونبض كل عبارة فيه بأصالة الكاتب وتفرده » .

وإذا كنت قد قرأت له «المتنبى» و«أباطيل وأسمار «ومقالاته في الرسالة» وبعض تعليقاته وشروحه وحواشيه على الكتب التى حققها ، فأنت فى غنى عن أن يدلك بالأمثلة على خصائص هذا الأسلوب المتميز وإلا فالمطلب عسير وإن كنت من أهل العربية العارفين بالتراث وأهله ، يذكرك أسلوبه بأساليب الأئمة الشامخين من أمثال : الجاحظ ، وأبى حيان التوحيدى ، وابن حزم ، على تفرد كل منهم ، وإنما جمعتهم الأصالة والامتياز » .

وبقدر ما لفتت هذه الكلمات نظرى إلى أن العطاء الفكرى لهذا الرجل لم يكن من خلال كتبه ومعاركه ، بل من خلال تلامذته المنتشرين فى الأرض العربية والإسلامية ، والتى كانت قبل استجلاب التليفزيون لمصر سنة ١٩٦٠ .. أما الآن فإن مجمل الزوار هم الذين يشكلون لون الجلسة. فإذا كانت الغالبية من العلماء والدارسين .. تألق الأستاذ محمود شاكر وحلق فى آفاق العلم أما إذا كانوا أناسا عاديين أقارب وأسر - حيث صار كل مريد يصطحب زوجته فإنها تصير جلسة مسامرات عادية موشاة بالعلم .. وفى كلا الحالتين كان الاستاذ محمود

شاكر يتنقل بين جلسائه ، يداعب هذا ويشاكس ذاك .. في تحبب ، ولأني كنت جديدة على الجلسة فقد خصني الاستاذ بقدر من الاهتمام آثار حفيظة البعض .. لاسيما وقد لبى طلبي في أن أستعير العدد الممتاز للمقتطف الذي حوى دراسته عن المتنبي ، وأذكر أني يوم زرته خرجت من منزله ليلا متوجهة لميعاد سابق مع أسرة الشاعر صلاح عبدالصبور وأخبرتهم بزيارتي للاستاذ محمود شاكر .. وشاهدوا معي عدد المقتطف ، هنأني صلاح لأنني حزت اعجاب الاستاذ ورضاه ، وعندما استفهمت قال لأن الأستاذ شاكر لا يعير كتبه ، فالذي يريد أن يقرأ في كتاب نادر أو مخطوط وحيد لديه .. عليه أن يذهب إلى بيته للإطلاع على ما يريده .. ثم يعيد الكتاب إلى المكتبة قبل المغادرة .

والحق أن ما أبداه الشاعر صلاح عبدالصبور أسعدني .. وأستأنست به على أن لدى الأستاذ محمود شاكر ثقة مبكرة بي .. فكان عليَّ أن أثبت جدارتي بهذه الثقة .. وفي سبيل ذلك عكفت أقرأه بعناية فائقة . وبكل ما أوتيت من قوة رحت أحيط بالكتاب من أطرافه أي من النفثة القديمة ، التي أستروحها احتفاء بقدومه على الكتابة عن المتنبي :

ذكرتك بين ثنايا السطور　　وأضمرت قلبي بين الكلم
ولست أبوح بما قد كتمت　　ولو حز في النفس حد الألم
تمزقني .. ما حييت – المنى　　فأرقع ما مزقت بالظلم
فكم كتم الليل من سرنا　　وفي الليل أسرار من قد كتم
تشابه في كتم ما نستسر　　سواد الدجى ، وسواد القلم

إلى أن وصلت إلى البيتين اللذين كثف بهما وقع شخصية وشعر المتنبى على نفسه :

فدتك نفوس الحاسدين ، فانها معذبة فى حضرة ومغيب

وفى تعب مَن يحسد الشمس ضوؤها

ويجهد أن يأتى لهــا بضريب

محمود محمد شاكر

٣ شوال ١٣٥٤

٢١ ديسمبر ١٩٣٥

وقد استوقفنى أن الاستاذ محمود شاكر ، قد أثبت تاريخ هذين البيتين ولم يثبت تاريخ إنشاده للأبيات الخمس التى تكون «نفثة قديمة» فغيب علينا ما إذا كانت هذه الأبيات تتبع «ديوان البغضاء » الذى كان يصدر تحت شعاره جل شعره الذى سبق نشره فى المجلات والصحف .. أم أنها قصيدة ذات طابع خاص وسرى للغاية لا يمكن البوح به ، وأنها حقا «نفثة قديمة » .